

في أدب المقارنه

القصص

في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ نغري أبو السعود

الميل إلى تأليف القصص والاستمتاع بسماعه طبيعان في الانسان ، فهو كما يميل تبعاً لغريزة الاستطلاع إلى مشاهدته حوادث الحياة تترى أمام عينيه ، يميل إلى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها ؛ ويميل إلى الاستماع إلى غيره يرويها له ، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه . والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول . وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء إلى القصص ، وإلى القصص يلجأ بداية كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق ، وبالقصص يشغف الأطفال اشد الشغف ، وبه شغف الانسان في عهد طفولته التاريخية .

كان القصص أول صور الأدب ظهوراً ، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى ، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم ، فما من شيء من ذلك كله إلا حاكوا له قصة ، ولا مظهر إلا اخترعوا له حكاية تعلقه ، فكان قصص تلك العهود علوماً بالخرافات والأوهام ، دأبوا حول لالهة والملوك والابطال والقبائل ، وبالجملة كان قصصاً رومانسياً تتكرر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطرات . وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر ، يمثل في أساطير الاولين من مصريين وفرس وإغريق ورومان ، وبارتقاء الجماعة العقلية يتخلص العلم رويداً رويداً من آثار العصب والخرافه ويختص الأدب بتلك الآثار وتتمثل في شعر الملاحم وما شاكلة وإذا ما ظهر النثر الفتي فقد ولت في آثاره أساطير الاولين تلك ، وإن بطل الاعتقاد في كثير منها ، وخطا القصص إلى المرحلة الثانية من مراحل تطوره ، فالتخذ وسيلة لاسداء المواقظ وإذاعة التجارب وتحجيد القضية . أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على السنة الطير والحيوان ، أو أفواه الأرواح

الرأى والذين يستطيعون الفصل في مثل هذه المسائل ، ومع هذا فانه لا ينكر ما للدماغ وأعصابه من دخل في الحركة والاحساس . ومهما يكن فلعل هذه الآراء هي منبع تعريف العقل المشهور الذي رددته المتأخرون من مؤلفي العرب ، فهم يكادون يجمعون على أنه قوة أودعها الله في القلب ولها شعاع متصل بالدماغ لانظن أنا في حاجة إلى مناقشة هذه الفسيولوجيا البائدة فان كشف الدورة الدموية قد قضى على فكرة الانبيا وما يتفرع عنها ، ودراسة الجهاز العصبي الحديثة لا تدع مجالاً لتلك الآراء التي كانت تعد القلب المركز الرئيسي للحياة النفسية . والنظرية القائلة بتوزيع المخ إلى مناطق نفوذ مستقلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص ، وإن كانت قد صادفت أنصاراً عديدين في القرن التاسع عشر ، لا تفسر الظواهر العقلية تفسيراً مقنعاً . على أن ابن سينا كان يمزج الفسيولوجيا بعلم النفس النظري ، ويخلط المادى بالروحي دون أن يوضح كيف يتفاعلان ؛ والصعوبة كل الصعوبة في توضيح هذا التفاعل . فهو اذن لم يوفق لحل مشكلة الصلة بين النفس والجسم ولم ياتنا فيها بجديد ؛ وكل ما عمله هو أن ضم أفكاراً أرسطية إلى أخرى جالينوسية على الرغم مما بينها من تناقض أو تعارض .

(يتبع)

ابراهيم مكرم

الحاكم بأمر الله

واسرار الدعوة الفاطمية

بقلم محمد عبد الله عنان

وهو آثم وأوفى بحث كتب عن الحاكم بأمر الله ، وشخصيته العجيبة ، وحياته المدهشة ، واختفائه المؤسى ؛ وعن نظم الخلافة الفاطمية ورسومها ومواكبها الباذخة ؛ وعن أسرار الدعوة الفاطمية ومجالس الحكمة الشهيرة

مجلد في نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير مطبوع بدار النشر الحديث
أجود طبع وزين بالصور التاريخية

ثمنه ٢٠ قرشا والبريد أربعة قروش لداخل القطر وستة للخارج
يرسل من المؤلف بفرانته بشارع الماسي نمرة ٢١ ومن مجلة الرسالة
ومكتبة النهضة بشارع المدامع وسائر المكاتب الأخرى

وأعظم الضلع في التطور العقلي والمادى ، وهو أثر قل أن يجاريه
أثر الشعر في سالف العصور .

فالقصة ضرب من الأدب مرن ، يجمع مزايا الشعر كالخيال
والعاطفة إلى مزايا النثر كالرحب والدقة والاستقصاء والفائدة
العملية ، وهى بهذا تلائم العصر الحديث أكبر ملاءمة ، وهذا
سر ذيوها حتى كادت تعطل ماعداها من ضروب القول ، فقد
تبيأت الأسباب من القرن الثامن عشر إلى اليوم لنهوض القصة —
الفنية ، التى تدرس نفس الفرد وحياته المجتمع وتحلل العواطف
وتشرح الآراء والمبادئ ، وذلك يرقى السواد الأعظم من الأمة
بعد ان كان هملا في غابر العصور ، وانشار التعليم العام وبروز
شخصية الفرد وذويع مبادئ الحرية والديمقراطية ، هذا إلى
ارتقاء الطباعة واعتماد الأدباء على الجمهور القارىء لا على رعاية
الأمراء والوجهاء

ولم تقتصر القصة في رقيها هذا الحديث على أن تميزت واستقلت
ضرباً قائماً من ضروب الأدب ، يتوفر على ممارسته بعض أقطاب
الأدب ، بل تطورت القصة تطوراً داخلياً ، وتميزت فيها ضروب
من القصص يتوفر على كل منها بعض القصصيين : فهناك القصة
التاريخية التى تدور حول الملوك والعظماء السابقين ، والقصة البيتية
التي تصور المجتمع المتواضع تصويراً شائفاً ، والقصة النفسية التى
تحلل بواطن النفس معتمدة على نظريات علم النفس الحديث
أحياناً ، والقصة الإصلاحية التى تحاول تحسين حال العامل أو
تعديل بعض النظم القانونية أو الاجتماعية ، أو تقويم بعض
المعتقدات والتقاليد ، والقصة المستقبلية التى تنبأ بما سيصير إليه
الانسان وتحاول تسديد خطاه إلى ما يجب أن ينزع إليه في مستقبله ،
والقصة البوليسية التى تعرض حيل المجرمين وخطط متعقبهم من
الشرطة ، وقصة المغامرات التى تصف أعمال بعض الأفاكين
ورحلاته في الجاهل

هكذا يتطور القصص ، من نوادر وأساطير بدائية واهية
القصد منتشرة النظام ، إلى صور فنية محكمة ، ومن أشباح مبهمه
وحوادث متضاربة إلى شخصيات ناطقة وسياق منطقي منسجم ،
ومن الخرافى والحارق والبعيد إلى الواقع العلمى والحاضر ، ومن
الماضى بآلته وأبطاله وعظائمه إلى الحاضر بمشاكله العادية وأفراده
المشهورين ، ومن اللفظ الطنان والخيال الشارد والعاطفة الثائرة
إلى المعنى المتدبر والتأمل الهادئ والوصف المفصل ؛ وهذه

والجان ، وصيغ أحياناً في شكل حوار ، كما يرى في قصص
لايزوب وجمهورية أفلاطون وحكايات لا فوتين وكتاب أميل
لروسو ؛ ويتطور القصص الشعرى أيضاً فتظهر الرواية الشعرية
التمثيلية ، وتحل محل الملحمة ، وينفصل التاريخ مستقلاً عن الأدب
متخلصاً جهده من الأساطير ، وإن ظل الاتصال بين التاريخ
والأدب وشيخاً طول العصور .

فاذا اطرده رقى الحضارة ونمو العلم وازدهار الأدب ورواج
النثر الفنى ، خطا القصص إلى مرحلته الأخيرة نحو الكمال ،
فصار فناً مستقلاً من كل غاية خارجية ، غايته الوحيدة غاية كل
الفنون ، وهى الجمال والشعور وتصوير النفس الانسانية ، وصارت
له قواعده وتقاليده المفهومة ، وبلغ مكانة ضرب راق من ضروب
الأدب كالملاحمة والدرامة والخطابه ، وسامى به النثر الشعر وباراه
جولانا في ميدان النفس الانسانية وأداء لوظيفة الأدب ، وظهر
في مضماره من خول الكتاب من يضاهون خول الشعر منزلة
ونبوغا ، بل ظهر من الأدباء من يجمع بين الشعر والقصص ،
وذهب الوهم الذى كان سائداً من قبل من أن القصص مطلب
هين ، وقصص شهب البراة سواء فيه والرخم

وللقصص ، إذا ما بلغ هذا الطور السامى من أطوار رقيه
مزايًا يختص بها دون غيره من ضروب الأدب منظومه ومشوره
فهو يمتاز برحب المجال رحباً يمكن من ممارسه من تناول أطراف
الحياة المترامية ، بين جد وفكاهة ووصف وحكمة وعلم وأدب ،
وهو يفسح للخيال متسعاً بعيد الآفاق ، ويمتدح اللب بما يعرض
من دقائق الحياة وتفاصيلها إلى جانب جلالها وبعيد أقطارها ،
وبه يعرض من أحوال الحب وأطواره ما يضيق الشعر نفسه
ذرعاً باستقصائه إلى لمحات خاطفة ، وقبل القصص كان النسيب
وقفاً على الشعر دون النثر ، والقصص لسهولة متاوله يذيع في
الخاصة والعامة على حد سواء ، على حين كان الشعر وقفاً على
خاصة المثقفين .

ولذويع القصص في الخاصة والعامة وجد فيه المصلحون
وسيلة عديمة الظير لنثر آرائهم ودعائياتهم ، بتصوير الحال التى
يكرهون وإبراز مساوئها وعرض ضحاياها والتدبير بجنائها وتشخيص
سبل ملاقاتها ، كل ذلك في أسلوب قصصى شائق تقبله النفس وتسيغه
وتقتنع به اقتناعاً كان صعب المثال لو عرض عليها الأمر في
صورة النصيح أو الوعظ . ومن أشهر القصصيين الدعاة تولستوى
ولابسن وأبانيز وغيرهم ممن كان لهم أكبر الأثر في الفكر الحديث

تطور ورقى مستمرين ، أحكمت أوضاعها وتعددت ضروبها وتتابعت أزيائها ، وظهر فيها كبار المؤلفين رجالا ونساء : منهم فيلنچ وديفر وسمولت كتاب قصص المغامرات ، وجين أوستن وشارلوت بروتي وسمز جاسكل مؤلفات قصص المجتمع ، وسكوت صاحب القصص التاريخية ، ودكنز وبتلر أصحاب القصص الإصلاحية ، وكونان دويل مخترع القصص البوليسية الذي صير اسم شرلوك هولمز علما على ذلك الضرب من القصص ، إلى غير هؤلاء . من القصصيين الذين لا يحصون ، وإلى غير تلك من ضروب القصص التي لا تستقصى . وفي تلك القصص تناول القصصيون اطراف الحياة المتباعدة وامتعوا النعوس وأرضوا الفن ، وما زالت القصة في صعود وكأنها لما تبلغ ذروتها

وفي خلال ذلك الوقت كانت الرواية التمثيلية تتطور وتبعث بعثا جديدا ، على صورة مائة للقصة المفرومة ، قوامها النثر السهل المرسل والواقع الحاضر ، ومرماها درس المجتمع والشخصيات وتحليل الآراء والمذاهب ، وظهر في مجاهار تولد بيت وبرايدشور وجالزوردي وغيرهم ، وإلى الأخيرين يعزى الفضل في كثير من الإصلاح الذي طرا على التنظيم الاجتماعية والمذاهب الفكرية في الجيل الأخير ، حتى شبه شو بمكنسه كهربائية ذهنية ، تنقي أوضاع العقول من خرافات وتعصب وحماقات وتقاليدها فاسدة

وكان للعرب في جاهليتهم قصصهم وأخبارهم وأيامهم وأساطيرهم ، متداخلا كل ذلك في شعرهم ونثرهم ، مختلطا بشعائهم ودينهم ، وقد تخلف كثير من ذلك بعد ذهاب الجاهلية ، وظل مختلطا بالأدب بمنزجا بالتاريخ ، يظهر في كتابات الجاحظ والأصمعي والطبري والأصبهاني ، وغيرهم من الكتاب والمؤرخين على السواء ؛ وحيكت نوادر جديدة حول اعلام الحب والحرب ، كابن أبي ربيعة وأبي نواس وعنترة ومهملل ؛ وحوى القرآن الكريم طرعا جليلا من شائق القصص ، وما زالت السور المحتوية على قصص يوسف ومريم ونوح من أقرب سور القرآن إلى نفوس الخاصة والعامة ؛ ثم انتشرت الكتابة وذاع النثر الفني ، فدخل القصص طوره الثاني : الطور الذي فيه يستخدم وسيلة لغيره ، فأنخذ في كيلة ودمنة وسيلة لبث الحكمة ، وفي رسالة حي بن يقظان ذريعة لشرح مسائل الفلسفة ، ولا حاجة إلى القول بأن خصائص القصة الفنية في هذه الكتب وأمثالها كانت ضعيفة واهية

ثم تهمت بعض أسباب دخول القصة في طورها الثالث الفني ،

الصفات التي تكتسبها القصة في طورها الراقى تكتسبها معها أو بعدها الرواية التمثيلية التي هي أسبق من صاحبها إلى الظهور ، منهجر الشعر إلى النثر ، والخيال إلى الدقة ، وتدرس النفس والمجتمع دراسة القصة لها ، لانكادان تختلفان إلا شكلا وطريقة تناول . فصاحب الرواية التمثيلية يترك أبطاله يرسمون شخصياتهم وأخلاقهم بأفواههم ، وصاحب القصة لا يدعهم يفعلون ذلك إلا إلى مدى ؛ ثم هو يتولى عنهم الشرح ويحللهم تحليلا دقيقا ، ويكون من الأدباء من يجمعون بين كتابه الرواية التمثيلية والقصة المفرومة

كان للانجليز قصصهم وأخبارهم وأساطيرهم قبل أن يتحضروا كما كان لغيرهم من الشعوب ، وكان كل ذلك يتداول شعابها ، فلما تحضروا وعرفوا الكتابة كان الشعر كعادته أسبق إلى الرقي ، فظهرت فيه قصص تشوسر المسماة حكايات كنتربري ، ثم ارتقت الرواية التمثيلية في عصر اليزابت على يد شكسبير ومعاصريه رقبيا عظيما ؛ وبدأت القصة النثرية مرحلتها الثانية ، فأنخذت وسيلة لغيرها : أنخذها صاحب كتاب يوفيواس ، وسيلة لشرح آداب الجتلان ، وأنخذها مؤلف ديوتويا ، وسيلة لتصوير المدينة الفاضلة ، وأنخذها كاتب إاطلانطس ، وسيلة لبسط النظريات العلمية ، وفي كل هذه كان الفن هزيلا والشخصيات مطموسة أو معدومة والسياق متداعيا

ثم تبيأت الأسباب الاجتماعية والمادية والمعنوية سالفة الذكر اللازمة لدخول القصة طورها الثالث ، طور الفن المسلج المهدب الذي يتوفر على تحليل النفس ودرس المجتمع ، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، وقد بدا ذلك التطور تدريجيا كما هو الشأن في كل تطورات الطبيعة والمجتمع الإنساني ، فاستلخت القصة رويدا رويدا عن المقالة الاجتماعية التي كانت منتشرة إذ ذاك في الصحف الدورية على أيدي ستيل وإديسون : كانت تلك المقالة تنهم بالأحوال الاجتماعية ، وتعرض لشخصيات المجتمع تحللها ، وأولعت بشخص واحد يدعى سيرودجر ، تبعه في شتى المواقف وتطفه بشتى الملاحظات وتحيطه بمختلف الشخصيات ، فكان من بمنزلة تلك المقالات قصة ذات تصميم وشخصيات وبطل وحوار ووسط اجتماعي وهلم جرا ، ولم يبق أمام الكتاب الذين جاءوا بعد إديسون وستيل ، إلا أن يزيدوا التصميم إحكاما والحوار تسديدا والشخصيات بروزا

وكان تاريخ القصة بعد ذلك خلال القرنين السالفين تاريخ

باستقرار الحضارة والرفاهة ، ونضج الثقافة ورواج سوق الأدب وكان ذلك في القرن الرابع ، فبدأت تنمو بذور القصة الفنية التي تدرس المجتمع وتحلل الشخصية وتهتم بالتصميم الفني والفكرة الموحدة ، ويبدو كل ذلك في مقامات بديع الزمان ، فهذا الكاتب يمثل في المرية من هذه الوجهة مكان أديسون وستيل في الإنجليزية ، وقد أبدى في ثانيا مقاماته من نفاذ النظرة وبداعة الوصف وبراعة الفكاهة وتنوع الموضوعات ما هو جدير بأسمى أنواع القصص ؛ واخترع شخصية أبي الفتح الاسكندري فكان على الأرجح المؤلف العربي الوحيد الذي اخزع شخصية شائقة واضحة من صنع الخيال المجرد . ولم تكن شخصيات المقامات التالية فيما بعد إلا نسخاً مكررة منه لا ابتكار فيها ، وشخصية أبي الفتح الاسكندري تعين من مراحل تطور القصة العربية نفس المرحلة التي تعينها شخصية سير روجر ديكفري من تطور القصة الإنجليزية .

فمقامات البديع في الأدب العربي بمثابة مقالات أديسون وستيل في الأدب الإنجليزي : تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية ، بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه . ولم يبلغ مرحلته التالية ، لأن الأسباب اللازمة لذلك لم تكن مكتملة : فالمقامات ذاتها قد ظهرت متأخرة ، ظهرت في أوج رقي الأدب العربي في القرن الرابع . وكان أجدر أن تأتي متقدمة في القرن الثاني مثلاً ، فليها باقي التطور المنشود الذي تلا مقالات أديسون وصاحبه في الإنجليزية ، وما ذاك إلا لزعة الجمود والتقليد التي كانت دائماً تخيم على الأدب العربي ، تمنع المغامرة الأدبية والابتكار والتنويع في الأشكال والموضوعات ، وفقدت المقامات بعد بديع الزمان صبغتها الاجتماعية وأصبحت لعباً بالالفاظ والمعاني .

أضف إلى نزعة الجمود تلك استمرار اعتماد الأدب على الأمراء دون جمهور الشعب ، قلما يصور رجاله مشاكل الشعب أو يحاولون الأخذ بيده وقيادة طريقه : فالحريري مثلاً حين تابع بديع الزمان وكتب مقاماته لم يكتبها بداع من داخل نفسه يدعوه إلى تناول مشاكل المجتمع ومطامع الشعب بالدرس والعرض والإصلاح والتوجيه ، بل امتثالاً لإشارة بعض الأمراء من إشارة حكم ، وطاعته غم ، كما يقول هو في مقدمته . وبحال أن ترقى القصة الاجتماعية في مجتمع أدباؤه متصلون من مشاكل شعبه لاندون بظل أمرائه

زد على ذلك مكانة المرأة في المجتمع ، التي كانت قد بلغت قبل أن يكتب البديع مقاماته حداً من التدهور بعيداً ، بعد ما كان من امتداد الفتوح واختلاط الأجناس ونقش الترسى والعبث . فحضر على المرأة الحجاب ، وخيم عليها الجهل واعتزلت المجتمع ، والمجتمع بنظر المرأة لا يخرج القصة الفنية التي تدرس الحب وتقديس الزواج وتشرح العواطف ، وإنما ينتج الشعر المستتر البذيء كشمس بشار وأبي نواس . وقد كان انهاض حال المرأة نصب عيني أديسون وستيل وغيرهما عن تلامها من الفصيين كما كان الحب مدار أكثر القصص ، كما كان من النساء جم غفير من القصصيات كما تقدم .

وإلى نزعة التقليد التي كانت تسود الأدب العربي ، كان ذلك الأدب ينزع إلى الصنعة اللفظية : فقمامات البديع ذاتها مثقلة بالصنعة والمحسنات ، ولا غرو ، فإذا كان الأدب قد تخطى إلى حد بعيد عن مشا كل المجتمع ، فلم يبق له من مواد القول إلا النذر اليسير ، فلما أعوزه الافتنان في المعاني التفت إلى اللعاب باللفظ ، وإلى هذه الزركمة اللفظية قصد الحريري أول ما قصد في محاكاة البديع ، ولم يفكر قط في ابتكار جديد من جهة المعاني والأفكار — ولم يحاول الزيادة عليه من جهة تناول الموضوعات الاجتماعية ، بل اكتفى بالتقليد الشكلي ، لجعل في كل مقامة شخصين يروى أحدهما عن الآخر ، وتنقسم المقامة بذلك إلى قسمين . دهليز للقصة كما يقول العامة ، والقصة ذاتها التي تبدأ بظهور البطل ، ولم تجيء شخصية بطله في وضوح شخصية أبي الفتح وتعدد نواحيها

لحالة المجتمع العربي ، ونظام الحكم فيه ، ومنزوع الأدب العربي ، كل هاتيك لم تكن ملائمة لتطور القصص إلى كاله ، فوقف عند بدء التطور الثالث ، وهو التطور الفني التصميم ، فعرف الأدب العربي النوادر والأخبار والسير وما إليها ، وعرف الحكايات ذوات المغزى العلى أو الخلق ، ولم يعرف القصة الاجتماعية والنفسية ذات التصميم المحكم والشخصيات الواضحة ، والفكرة الموحدة والغاية المستقلة والموضع الفني ، ولم تسم القصة في الأدب العربي إلى منزلة عالية كالتى تمتع بها الشعر والخطابة والنقد ، وظل للشعر المكانة الأولى وبقى مستأثراً بأكثر ضروب القول ، ولم يظهر في القصة من الأعلام أمثال من ظهر في الشعر والنقد والخطابة ، وترك القصص المطول الحافل بالوصف الاجتماعي والخيالى للعامة

فتمرى أبو السحرة